

الباب الثالث

بحث نظري عن التفسير مناهجه واتجاهاته

أ. نشأة التفسير وتطوره

التفسير في اللغة هو تفعيل من الفسر بمعنى الإبانة والكشف وإظهار المعنى المعقول، وفعله كضرب ونصر، يقال: فسر الشيء يفسر بالكسر ويفسره بالضم فسراً، وفسره: أبانه، والتفسير والفسر: الإبانة وكشف المغطى، وفي لسان العرب: الفسر كشف المغطى. والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل.^{٦٦} وفي الإصطلاح بيان معاني القرآن الكريم، وبيان معاني غيره يسمى تفسيراً في الواقع، إذا يصح أن نسميه تفسيراً، لكن في العرف يسومون ما سوى القرآن شرحاً، ولهذا قلّ أن تجد من يقول شرح الآية الكريمة، بل يقول تفسير، أو يقول تفسير الحديث، بل يقول شرح، وهذا مسألة عرفية، وإلا فمعنى التفسير والشرح واحد.^{٦٧}

فهو علم به فهم كتاب الله سبحانه وتعالى المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف والعلم البيان، وأصول الفقه وعلم

^{٦٦} مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، (القاهرة: مكتبة وهبة)، ٣١٦.

^{٦٧} محمد صالح العثيمين، شرح أصول في التفسير، (الرياض: مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين

الخيرية، ١٤٤٣)، ١٧٧-١٧٨.

القراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ، وقد أكثر العلماء فيه من الموضوعات، ما بين مُختَصِرٍ ومبسوط، وكلهم يقتصر على الفن الذي يغلب عليه.^{٦٨}

قال الزركشي: التَّفْسِيرُ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ فَهْمُ كِتَابِ اللَّهِ الْمُنَزَّلِ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيَانُ مَعَانِيهِ وَاسْتِخْرَاجُ أَحْكَامِهِ وَحِكْمِهِ.^{٦٩} وقد ذكرت كلمة التفسير في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)^{٧٠}، بمعنى الكشف والبيان بتفصيل.^{٧١}

وعند محمد قريش شهاب، نقلاً عن رأي أحمد بن فارس (٣٩٥ هـ) خبير في اللغويات يشرح في كتابه "المقيس في اللغو" أن يوم في البداية، كلمة تفسير هي كلمات تتكون من ثلاثة أحرف "فسر" يعني الانفتاح والوضوح. من هنا كلمة فسارة تشبه كلمة سفارة. الأمر مجرد أن الأول له معنى إظهار المعنى الذي في متناول العقل، أما الثانية وهي سفارة فتظهر الأشياء الموجودة المادية والحسية. إذا كنت تميز النساء ب الياقوت، فهذا يعني أنه يظهر من الجزء ما يجب أن يغطي جسده. قال الراعي التفسير مأخوذة من كلمة فَسَارَة، تعني الجديدة فتح أو تكرار الافتتاح، هكذا هو تعني صدق الانفتاح والجهود المتكررة لفتح ما هو مغلق، اشرح ما هو سخيّف أو صعب من معنى شيء بما في ذلك المفردات. بينما حسب المصطلح هو شرح لمقاصد الكلمة الله على قدرة الإنسان. ولدت التفسير

^{٦٨} خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٦)، ٤٠.

^{٦٩} بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن المجلد ١، (بيروت، لبنان: دار المعرفة، ١٩٥٧)، ١٣.

^{٧٠} سورة الفرقان: الآية، ٣٣.

^{٧١} مازن شاكر التميمي، أصول وقواعد التفسير الموضوعي للقرآن، (العراق: العتبة الحسينية المقدسة،

من محاولات شاقة ومتكررة لجذب وإيجاد معاني في نص آيات القرآن كذلك شرح ما لا يزال غامضاً حسب القدرة و ميول المترجم.^{٧٢}

١ . منزلة التفسير في فهم القرآن

وقد اعتنى علماء الإسلام رحمهم الله تعالى، بكتاب الله عز وجل عناية بالغة، ومن وجوه هذه العناية تفسير القرآن وبيان معانيه، واستنباط الأحكام والفوائد من آياته، على حسب ما آتاهم الله عز وجل من العلم والإيمان، والفهم والتقوى. لهذا ينبغي للمسلم أن يحرص على معرفة معنى القرآن الكريم حتى ينتفع به، وحتى يكون متبعاً لآثار السلف، فإنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل. وقال رحمه الله: حري بطلبة العلم أن يحرصوا في كل مناسبة إذا اجتمعوا بالعامية أن يأتوا بآية من كتاب الله يفسرونها، لاسيما ما يكثر ترداده على العامة مثل الفاتحة، فإنك لو سألت عامياً بل الكثير من الناس عن معنى سورة الفاتحة لم يعرف شيئاً منها.^{٧٣}

فإن أول ما أُعْمِلَتْ فِيهِ الْقَرَائِحُ وَعَلِقَتْ بِهِ الْأَفْكَارُ الْوَاقِحَ فَحَصَّ عَنْ أَسْرَارِ التَّنْزِيلِ وَالْكَشْفِ عَنْ حَقَائِقِ التَّأْوِيلِ الَّذِي تُقَوْمُ بِهِ الْمَعَالِمُ وَتَتَبُّتُ الدَّعَائِمُ. فَسُبْحَانَ مَنْ سَلَكَهُ يَنَابِيعُ فِي الْقُلُوبِ وَصَرَافَةُ بِأَبْدَعِ مَعْنَى وَأَعْرَبِ أُسْلُوبٍ، لَا يَسْتَفْصِي مَعَانِيَهُ فَهَمُّ الْخَلْقِ وَلَا يُحِيطُ بِوَصْفِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ذُو اللِّسَانِ الطَّلِقِ فَالسَّعِيدُ مَنْ صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَيْهِ وَوَقَفَ فِكْرَهُ وَعَزَمَهُ عَلَيْهِ وَالْمَوْفِقُ مَنْ وَقَّعَهُ اللَّهُ لِتَدْبِيرِهِ وَاصْطَفَاهُ لِلتَّذْكِيرِ بِهِ وَتَدَكَّرِهِ فَهُوَ يَرْتَعُ مِنْهُ فِي رِيَاضٍ وَيَكْرَعُ مِنْهُ فِي حِيَاضٍ أُنْدَى عَلَى الْأَكْبَادِ مِنْ قَطْرِ النَّدَى.^{٧٤}

⁷² M. Quraish Shihab, *Kaedah Tafsir*, (Tangerang: Lentera Hati, 2013), 9.

^{٧٣} محمد صالح العثيمين، تفسير جزء عم، (الرياض: دار الثريا للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢)، ٦-٧.

^{٧٤} بدر الدين محمد عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن مجلد ١، ٣-٥.

٢. تطور علم التفسير

اتفق العلماء في هذا الأمر، أن تطور التفسير تصنيف إلى ثلاث فترات، بل هم يختلفون في أسمائها. عند محمد حسين الذهبي تصنيف إلى ثلاث فترات، الأول في عصر النبي ﷺ وأصحابه،^{٧٥} والثاني في عصر التابعين^{٧٦}، والثالث في عصور التدوين.^{٧٧} وأما عند أيغنز جولد زيهر قسم تاريخ وتطور التفسير تصنيف إلى ثلاث فترات، فلأول في تطور المذاهب محدود وقائم علي تفسير بالمأثور. والثاني في تطور نحو أهل الرأي، تشمل العقيدة، والتصوف، والسياسة الدينية. والثالث في تطور الثقافة/ العلوم الإسلامية التي تتميزها ظهور أفكار جديدة في الإسلام لأحمد خان، جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا.^{٧٨}

لعل البعض يفهم من قوله تعالى (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)^{٧٩} أن الرسول صلى الله عليه وسلم تولى تفسير كل آية من القرآن لصحابته رضوان الله عليهم، ولكن هذا فهم مبالغ فيه وغير دقيق، إذ أن قوله تعالى: (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) يعني تبين ما يحتاج منه إلى بيان، وقد أنزل الله القرآن على رسوله بلغة قومه (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

^{٧٥} محمد حسين الذهبي، تفسير والمفسرون مجلد ١، (مصر: دار الكتب الحديثة، ١٩٧٦)، ٣٢.

^{٧٦} محمد حسين الذهبي، تفسير والمفسرون مجلد ١، ٩٨.

^{٧٧} محمد حسين الذهبي، تفسير والمفسرون مجلد ١، ١٤٠.

⁷⁸ Abdul Mustaqim, *Aliran-aliran Tafsir: Madzahibut Tafsir dari Periode Klasik Hingga Kontemporer*, (Yogyakarta: Kreasi Wacana, 2005), 19.

^{٧٩} سورة النحل، الآية: ٤٤.

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)^{٨٠} وكان العرب في ذروة البلاغة وهم أرباب الفصاحة،^{٨١} يقول ابن خلدون في مقدمته: "إن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه" ولكنهم مع هذا كانوا يتفاوتون في الفهم، فقد يغيب عن واحد منهم ما لا يغيب عن الآخر.^{٨٢}

وقد نزل القرآن يخاطبهم جميعا. ويحثهم لما يدعوهم إليه، ومن الطبيعي ألا يكون غامضا عليهم فكانوا أقرب الناس إلى فهمه وإدراك معانيه وتقدير بلاغته، حتى وجدنا أعتى الناس عداوة للرسول، ينقلب بمجرد سماعه إلى مسلم تابع له، وأيضا أشد الناس إخلاصا ودفاعا عنه، ووجدنا آخرين يتزعمون معارضته، وإيقاع الأذى به وبدعوته، ومع ذلك تأسروهم بلاغة القرآن ومعانيه، ويتسارقون ويتسربون ليلا، للاستماع إلى الرسول صلى عليه وسلم وهو يقرؤه بصوت مسموع، إشباعا للذة الاستماع إليه، مع كراهتهم له.

ولو لم يفهموه ويحسوا بلاغته، ما سحرهم بيانه، وما جذبهم لهذه المخاطرة التي خاطروا فيها بأنفسهم وبمراكزهم وزعامتهم وسط معسكر الكافرين بالرسول، لو انكشف أمرهم. وقلنا كانوا أقرب الناس إلى فهمه، لأنهم لم يكونوا جميعا على مستوى واحد من الفهم له وإدراك معانيه إذ من الطبيعي أن تكون أفهامهم متفاوتة، حتى لما يسمعون من كلامهم. وذكرت لنا الروايات الصحيحة، أن بعضهم، ومنهم مقربون إلى رسول الله كان يتوقف في فهم بعض ألفاظ وردت فيه، وإن كان يفهم المعنى الإجمالي

^{٨٠} سورة يوسف، الآية: ٢.

^{٨١} عبد المنعم النمر، علم التفسير كيف نشأ وتطور حتى انتهى إلى عصرنا الحاضر، (القاهرة: دار

الكتب الإسلامية، ١٩٨٥)، ٢٣.

^{٨٢} مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ٣٤٥.

للآية والسورة. والغرض من سياقها، فوجدنا الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه، مع مكانته يسأله رجل عن معنى "الأب" بتشديد الباء في قوله تعالى "وَفَاكِهَةً وَأَبًّا" فيقول: نهيينا عن التكلف والتعمق، وفي رواية أخرى أنه كان يقرأ الآية فتساءل عن معنى "الأب" كما روى أيضا أنه كان يقرأ "أو يأخذهم على تخوف" وهو على المنبر، فتساءل عن معنى "تخوف" فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا هو التنقص، ونحن الآن مع تباعد القرون بيننا وبينهم، لا نجد القرآن غامضا علينا إلا النادر منه الذى يحتاج إلى وقفة معه حتى العامى منا يدرك الكثير من معانى الآيات، ويخشع قلبه لما

يسمعه. ٨٣

ب. مصادر التفسير

ثم مصادر التفسير فى هذا العصر الأول: القرآن الكريم. الثانى: النبى صلى الله عليه وسلم. الثالث: الاجتهاد وقوة الاستنباط. الرابع: أهل الكتاب اليهود والنصارى.

١. القرآن الكريم

الناظر فى القرآن الكريم يجد أنه قد اشتمل على الإيجاز والإطناب، وعلى الإجمال والتبيين، وعلى الإطلاق والتقييد، وعلى العموم والخصوص. وما أُوجِزَ فى مكان قد يُبَسِّطُ فى مكان آخر، وما أُجْمِلَ فى موضع قد يُبَيَّنُّ فى موضع آخر، وما جاء مطلقاً فى ناحية قد يلحقه التقييد فى ناحية أخرى، وما كان عاماً فى آية قد يدخله التخصيص فى آية أخرى.

^{٨٣} عبد المنعم النمر، علم التفسير كيف نشأ وتطور حتى انتهى إلى عصرنا الحاضر، ٢٣.

ولهذا كان لا بد لمن يعترض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً، فيجمع ما تكرر منه في موضوع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجزاً، وبما جاء مُبيناً على فهم ما جاء مُجَمَّلاً، وليحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسّر القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء عن الله، وهذه مرحلة لا يجوز لأحد مهما كان أن يعرض عنها، ويتخطاها إلى مرحلة أخرى، لأن صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه، وأعرف به من غيره.

وعلى هذا، فمن تفسير القرآن بالقرآن: أن يُشرح ما جاء موجزاً في القرآن بما جاء في موضع آخر مُسهباً، وذلك كقصة آدم وإبليس، جاءت مختصرة في بعض المواضع، وجاءت مُسهباً مطوّلة في موضع آخر، وكقصة موسى وفرعون، جاءت موجزة في بعض المواضع، وجاءت مُسهباً مُفصّلة في موضع آخر. ومن تفسير القرآن بالقرآن: أن يُحمل المجمل على المبيّن ليُفسّر به، وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن، فمن ذلك تفسير قوله تعالى في سورة غافر الآية ٢٨: (وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُّكُمْ) بأنه العذاب الأدنى المعجل في الدنيا، لقوله تعالى في آخر هذه السورة آية ٧٧: (فَإِذَا نُزِيتَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيْتُكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ).^{٨٤}

٢. النبي صلى الله عليه وسلم

لا ريب أن التفسير مر بأطوار كثيرة حتى اتخذ هذه الصورة التي نجده عليها الآن في بطون المؤلفات والتصانيف، بين مطبوع ومخطوط. ولقد نشأ التفسير مبكراً في عصر النبي صلى الله عليه

^{٨٤} محمد حسين الذهبي، تفسير والمفسرون مجلد ١، ٣١.

وسلم الذي كان أول شارح لكتاب الله، بين للناس ما نزل على قبله. أما صحابته الكرام فما كانوا يجرءون على تفسير القرآن وهو عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم، يتحمل هذا العبء العظيم، ويؤديه حق الأداء، حتى إذا لحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى لم يكن بد للصحابة العلماء بكتاب الله، الواقفين على أسراره، المهتدين بهدي النبي صلى الله عليه وسلم من أن يقوموا بقسطهم في بيان ما علموه، وتوضيح ما فهموه.^{٨٥}

النبي صلى الله عليه وسلم فهو المبين للقرآن، وكان الصحابة يرجعون إليه إذا أشكل عليهم فهم آية من الآيات، عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)^{٨٦}، شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: "إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: (وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)^{٨٧} إنما هو الشرك". كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبين لهم ما يشاء عند الحاجة، عن عقبة بن عامر قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: (وَاعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ^{٨٨} وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)^{٨٨} "ألا وإن القوة الرمي".

^{٨٥} صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، (دار العلم، ٢٠٠٠)، ٢٨٩.

^{٨٦} سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

^{٨٧} سورة لقمان، الآية: ١٣.

^{٨٨} سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

وعن أنس قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "الكوثر نهر أعطانيه ربي في الجنة".
وقد أفردت كتب السنّة بابًا للتفسير بالمأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الله تعالى: (وَمَا
أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).^{٨٩} ومن القرآن
ما لا يُعلم تأويله إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم كتنصّل وجوه أمره ونهيه، ومقادير ما فرضه
الله من أحكام، وهذا البيان هو المقصود بقوله، صلى الله عليه وسلم: "ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله
معه".^{٩٠}

٣. التفسير في عصر الصحابة

وحيثُ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم
أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم
الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماءهم وكبرائهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة
المهديين؛ مثل عبد الله بن مسعود. قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: حدثنا أبو كُرَيْب،
قال: أنبأنا جابر بن نوح، أنبأنا الأعمش، عن أبي الضُّحَى، عن مسروق؛ قال: قال عبد الله يعني ابن
مسعود: والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلم
مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناوله المطايا لأنتيته. وقال الأعمش أيضا عن أبي وائل، عن ابن
مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن.^{٩١}

^{٨٩} سورة النحل، الآية: ٦٤.

^{٩٠} مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ٣٤٦-٣٤٧.

^{٩١} تقي الدين ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٨٠)، ٤٠-٤١.

كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله، ولم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعوا في ذلك إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم، وهذا بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واجتهاد، أما ما يمكن فهمه بمجرد معرفة اللغة العربية فكانوا لا يحتاجون في فهمه إلى إعمال النظر، ضرورة أنهم من حُلصِ العرب، يعرفون كلام العرب ومناحيهم في القول، ويعرفون الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد من ذلك في الشعر الجاهلي الذي هو ديوان العرب، كما يقول عمر رضی الله عنه.

أدوات الاجتهاد في التفسير عند الصحابة: وكثير من الصحابة كان يُفسّر بعض آي القرآن بهذا الطريق، أعنى طريق الرأي والاجتهاد، مستعيناً على ذلك بما يأتي: أولاً: معرفة أوضاع اللغة وأسرارها. ثانياً: معرفة عادات العرب. ثالثاً: معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن. رابعاً: قوة الفهم وسعة الإدراك. فمعرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها، تعين على فهم الآيات التي لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب. ومعرفة عادات العرب تعين على فهم كثير من الآيات التي لها صلة بعاداتهم، فمثلاً قوله تعالى: (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ)^{٩٢} وقوله: (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا)^{٩٣}.

لا يمكن فهم المراد منه، إلا لمن عرف عادات العرب في الجاهلية وقت نزول القرآن. ومعرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن، تعين على فهم الآيات التي فيها الإشارة إلى أعمالهم والرد عليهم. ومعرفة أسباب النزول، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، تعين على

^{٩٢} سورة التوبة، الآية: ٣٧.

^{٩٣} سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

فهم كثير من الآيات القرآنية، ولهذا قال الواحدى: "لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها". وقال ابن دقيق العيد: "بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن" وقال ابن تيمية: "معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية. فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب".^{٩٤}

٤ . التفسير فى عصر التدوين

تبدأ المرحلة للتفسير من عصر التابعين الذين تتلمذوا للصحابة فتلقوا غالب معلوماً تم عنه. وكما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير والرجوع إليهم فى استجلاء بعض ما خفى من كتاب الله، اشتهر أيضاً بالتفسير أعلام من التابعين، تكلموا فى التفسير، ووضّحوا لمعاصريهم خفى معانيه. وقد اعتمد هؤلاء المفسرون فى فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء فى الكتاب نفسه، وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء فى كتبهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر فى كتاب الله تعالى. وقد روت لنا كتب التفسير كثيراً من أقوال هؤلاء التابعين فى التفسير، قالوها بطريق الرأى والاجتهاد، ولم يصل إلى علمهم شئ فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن أحد من الصحابة.

وقد قلنا فيما سبق: إن ما نُقِلَ عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة من التفسير لم يتناول جميع آيات القرآن، وإنما فسّروا ما غمض فهمه على معاصريهم، ثم تزايد هذا الغموض على تدرج كلما بَعُدَ الناس عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، فاحتاج المشتغلون بالتفسير من

^{٩٤} محمد حسين الذهبي، تفسير والمفسرون مجلد ١، ٤٥.

التابعين إلى أن يكملوا بعض هذا النقص، فزادوا في التفسير بمقدار ما زاد من غموض، ثم جاء من بعدهم فأتموا تفسير القرآن تبعاً، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم في القول، وعلى ما صح لديهم من الأحداث التي حدثت في عصر نزول القرآن وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث.^{٩٥}

كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح، عن مجاهد قال: عرضتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها. وبه إلى الترمذي، قال: حدثنا الحسين بن مهدي البصري، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، قال: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئا. وبه إليه قال: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الأعمش؛ قال: قال مجاهد: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب قال: حدثنا طلق بن غنام، عن عثمان المكي، عن ابن أبي مليكة؛ قال: رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواح، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله؛ ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.^{٩٦}

بدأت الفتوحات الإسلامية في أواخر عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ثم بدأت تتسع شرقاً، وشمالاً، وغرباً، حتى أتت على مملكة كسرى، والروم، ومصر، وما لبث الجهاد أن حمل الصحابة رضوان الله عليهم إلى كل هذه البلدان واستقر العديد منهم فيها، والتف الناس حولهم متشوقين إلى هؤلاء

^{٩٥} محمد حسين الذهبي، تفسير والمفسرون مجلد ١، ٧٦.

^{٩٦} تقي الدين ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، ٤٤.

النفر الكرام البررة الذين رأوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعاصروا الوحي، ونالوا شرف القتال في الغزوات الكبرى. ومع ذلك فقد تفرغ منهم للعلم في موطن الوحي عبد الله بن عباس في مكة، وأبي كعب في المدينة فلم يشأ كل منهما أن يغادر موطنه الذي ولد فيه فنشأت على أكتافهما مدارس التفسير في الحرمين الشريفين. بينما استقر عليّ ومن قبله ابن مسعود في العراق فقامت بهما مدارس التفسير فيه.^{٩٧}

أما التابعون، فاشتهر منهم جماعة، أخذوا عن الصحابة، واجتهدوا في تفسير بعض الآيات. فاشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاوس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح. واشتهر من تلاميذ أبي كعب بالمدينة: زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظي. واشتهر من تلاميذ عبد الله بن مسعود بالعراق: علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي.

اشتهر بالتفسير من التابعين كثيرون فمنهم:

- أ- أهل مكة وهم أتباع ابن عباس كمجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح.
- ب- أهل المدينة وهم أتباع أبي كعب، كزيد بن أسلم وأبي العالية ومحمد بن كعب القرظي.
- ج- أهل الكوفة وهم أتباع ابن مسعود، كقتادة وعلقمة، والشعبي. فلنترجم حياة اثنين من هؤلاء: مجاهد وقتادة.^{٩٨}

^{٩٧} عبد الجواد خلف محمد عبد الجواد، مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، (القاهرة: دار البيان العربي)،

^{٩٨} محمد بن صالح العثيمين، أصول في التفسير، (المكتبة الإسلامية: ٢٠٠١)، ٣٨.

قال ابن تيمية: "وأما التفسير، فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاوس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير وأمثالهم، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل: زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير، وأخذ عنه أيضًا ابنه عبد الرحمن، وعبد الله بن وهب".^{٩٩}

واختلف علماء الأمة في قبول "رأى" التابعي في التفسير، ومدى الالتزام به، إذا كان هذا قولاً مستقلاً له موقوفاً عليه غير مسند إلى صحابي، أو غير مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وهم في ذلك على رأيين:

الأول: أن قول التابعي ورأيه الشخصي في التفسير، هو كقول آحاد الناس غير ملزم بقبوله وللأمة أن تأخذ به أو تأخذ برأى مجتهد سواه في عصره أو بعد عصره وذلك للأسباب الآتية: ١- أن التابعي (في رأيه الشخصي) ليس له سماع من النبي صلى الله عليه وسلم، ولا من الصحابي حتى تلتزم الأمة رأيه. ٢- أن التابعي (في رأيه الشخصي) شأنه شأن غيره من جيله ومن بعده لم يرث القرائن التي نزل عليها الوحي، فيجوز عليه الخطأ- كما يجوز على غيره- في فهم المراد، وظن ما ليس بدليل دليلاً. ٣- أن التابعي لم تنصّ على عدالته، كما نص عليها بالنسبة للصحابة. ٤- أن جميع مجتهدي الأمة (من التابعين وأتباعهم) نصّوا على ذلك، ولكل من الأئمة الأربعة مقالة مشهورة عنه تصلح كدليل لهذا الرأي.

^{٩٩} مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ٧.

أ- يقول أبو حنيفة يرحمه الله تعالى: "ما جاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا. وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال". ب- ويقول مالك يرحمه الله تعالى: "كل منا يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر" مشيراً إلى قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ج- ويقول الشافعي يرحمه الله تعالى: "إذا رأيت قولي يخالف قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاضرب بقولي عرض الحائط". د- ويقول أحمد بن حنبل يرحمه الله تعالى: "إذا صح الحديث فهو مذهبي" فقد قال هؤلاء الأئمة كلمة الفصل في هذه المسألة وهي أن قول التابعي "الخاص" غير واجب الأخذ به في ما يفسره من آيات الله تعالى، وشأنه في ذلك شأن غيره من المفسرين.

الثاني: أن قول التابعي "الشخصي". غير المسند إلى صحابي، وغير المرفوع إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قول يؤخذ بالقبول، ويعتد به. وحجتهم في ذلك: أن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة. فمجاهد مثلاً يقول: "عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها".

وكتادة يقول: "ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً". وهذا رأى أكثر المفسرين. تحقيق المسألة: لابن تيمية يرحمه الله تعالى كلمة جيدة في هذه المسألة نقلها عنه في كتابه "مقدمة في أصول التفسير" فيما يلي: قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟، يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم وهذا صحيح أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

وهذا أيضا ما استقر عليه بعض الباحثين المعاصرين كالدكتور/ محمد حسين الذهبي في كتابه "التفسير والمفسرون" حيث يقول: "والذي تميل إليه النفس هو أن قول التابعي في التفسير لا يجب الأخذ به إلا إذا كان مما لا مجال للرأى فيه فإنه يؤخذ به حينئذ عند عدم الريبة، فإن ارتبنا فيه، بأن كان يأخذ من أهل الكتاب، فلنا أن نترك قوله ولا نعتد عليه. أما إذا أجمع التابعون على رأى فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره.^{١٠٠}

ج. مناهج التفسير

١. تعريف منهج التفسير

الأصل من كلمة "منهج" هي "نَهَج" النون والهاء والجيم أصلان متباينان: الأول النَّهَج، الطَّرِيق. ونَهَج لى الأمر: أوضحه. وهو مستقيم المنهج. والمنهج: الطَّرِيق أيضا، والجمع المناهج.^{١٠١}

والمصطلحات الأساسية في باب مناهج تفسير القرآن عبارة عن:

(أ). المنهج: وهو الاستفادة من الوسائل والمصادر الخاصة في تفسير القرآن والتي يمكن من خلالها تبيين معنى ومقصود الآية والحصول على نتائج مشحّصة. وبعبارة أخرى، إن كيفية كشف واستخراج معاني ومقاصد آيات القرآن الكريم هو ما يطلق عليه "منهج التفسير".

^{١٠٠} عبد الجواد خلف محمد عبد الجواد، مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، ١٠٥-١٠٧.

^{١٠١} أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللغة مجلد ٥، (دار الفكر، د.ت)، ٣٦١؛ الرغيب الأصفهاني،

مفردات الألفاظ القرآن، (دمشق: دار القلم، ٢٠٠٩)، ٨٢٥.

(ب). التفسير: هو الكشف عن الإبهام في الجمل والكلمات القرآنية، وتوضيح مقاصدها وأهدافها. وبعبارة أخرى، إن المقصود من التفسير هو التبيين المراد الاستعمالي لآيات القرآن، وتوضيح المراد الجدّي على أساس قواعد اللغة العربية والأصول العقلانية للمحاورة.

ومن أهداف المنهج التفسير هي :

- (١). يعتمد بحث المناهج على أساس كيفية كشف المعنى ومقصود الآية.
- (٢). يتشكّل بحث المناهج على أساس المصادر والادوات التفسيرية (مثل استخدام العقل والروايات).^{١٠٢}

بدأ علم التفسير منذ صدر الإسلام، وكان مصدره الوحي الإلهي الذي عزّف الرسول ﷺ كفسّر للقرآن. وكان الرسول ﷺ يعتمد على القرآن نفسه في التفسير، ومن هنا نشأت طريقة تفسير القرآن بالقرآن. وقد تصدى أهل البيت ﷺ والصحابة لتفسير القرآن على ضوء المنهج السابق مع الاستفادة من المنهج الروائي، أي الاستناد إلى الروايات الصادرة عن الرسول ﷺ في تفسير آيات القرآن.^{١٠٣}

وهناك مجموعة أخرى تورطت بتفسير وتأويل القرآن طبّقاً لميولها وبدون رعاية الضوابط والقرائن، ومن هنا نشأ التفسير بالرأي. ثم ظهرت مناهج وأساليب أخرى بين المسلمين بشكل تدريجي في القرن الثاني الهجري فما بعده، وقد تكوّنت الاتجاهات التفسيرية الكلامية بسبب ظهور البحوث

^{١٠٢} محمد علي الرضائي الإصفهاني، دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، (إيران: مركز العالمي لدراسة الإسلامية، ١٣٨٣)، ١٨-١٩.

^{١٠٣} محمد علي الرضائي الإصفهاني، دروس في المناهج والاتجاهات ... ١٩-٢٠.

الكلامية والفلسفية فكانت كل فرقة من فرق المسلمين كالأشاعرة والمعتزلة تفسر القرآن طبقاً لآرائها وعقائدها. وفي نفس هذا الاتجاه كانت الاختلافات الدينية قد بدأت في القرن الأول الهجري مصحوبة باختلافات الفقهية والتي تركت تأثيرها على تفسير الآيات الفقهية في القرآن. وفي القرن الثالث فما بعده، بدأت تظهر أساليب جديدة في التفسير على يد العرفاء والمتصوفة. مما أدى إلى تطور المنهج الإشاري في التفسير. ثم تطورت في القرن الأخير أساليب ومناهج جديدة في التفسير مثل طريقة التفسير العلمي والاتجاه الاجتماعي.^{١٠٤}

أما الأول في تشكيل منهج التفسير فهو يعرف في تفسير بالمأثور، وتفسير بالرأي، وتفسير بالإشاري. وبذلك تكون الطريقة التي يستخدمها علماء التفسير في قرن التاسع إلى الثالث عشر من الهجري. ومن فيها محمد علي الصابوني، صبحي الصالح، والزرقاني، ثم الذهبي ينقسم إلى خمسة أنواع مختلفة هي التفسير بالمأثور، التفسير بالرأي، التفسير الإشاري، التفسير الموضوعي، والتفسير العلم. أما مناع القطان ينقسم إلى خمس.

رقم	مراقب التفسير	مناهج التفسير		
١	محمد علي الصابوني	بالمأثور	بالرأي	الإشاري
٢	مناع القطان	بالمأثور	بالرأي	الإشاري
٣	صبحي الصالح	بالمأثور	بالرأي	الإشاري
٤	الزرقاني	بالمأثور	بالرأي	الإشاري

^{١٠٤} محمد علي الرضائي الإصفهاني، دروس في المناهج والاتجاهات ... ٢٠-٢١.

٥	فهد ابن عبد الرحمن الرومي	بالمأثور	بالرأي
٦	علي الألوسي	بالمأثور	بالرأي ومن : لغوي، فلسفي، سوفي، بطيني، عقدي، فقهي
٧	حسين الذهبي	بالمأثور	بالرأي الإشاري الموضوعي العلمي
٨	عبد المحي الفرماوي	بالمأثور	تحليلي تكوّن من : بالمأثور، بالرأي، سوفي، فقهي، علمي
		مقارن	موضوعي إجمالي

أما محمد قريش شهاب ينقسم منهج التفسير إلى منهج بالمأثور، ومنهج بالرأي في كتابه *"membumikan Al-Qur'an"*. ويكون منهج بالرأي ينقسم إلى أسلوب التحليلي، والموضوعي. ولكن بعد عشرة سنة، هو افترض منهج التفسير الذي مختلف، في كتابه *"Kaidah Tafsir"* هو يصنف تفسير بالمأثور وتفسير بالرأي نحو "صيغة التفسير القرآن" بناءً على مصادره. وبماثل أيضا كمحمد حسبي الصّديقي في *"Sejarah Pengantar Ilmu Al-Qur'an"* الذي يصنف تفسير بالمأثور كما إتجاه التفسير.^{١٠٥} ما يلي شرح موجز لصيغة التفسير القرآن بناءً على مصادره :

(أ). التفسير بالمأثور

هو بيان معنى الآية بما ورد في الكتاب أو السنة أو أقوال الصحابة رضي الله عنهم. فهو التفسير الذي يعتمد على صحيح المنقول ولا يجتهد في بيان معنى من غير دليل ويتوقف عما لا طائل

¹⁰⁵ Abdul rahman taufiq, *Studi Metode dan Corak Tafsir al-Huda (Tafsir Qur'an Basa Jawi Karya Brigjend Drs. H. Bakri Syahid)*, Skripsi, (Jakarta: UIN Syarif Hidayatullah), 18-20.

تحتة ولا فائدة في معرفته.^{١٠٦} يشمل التفسير المأثور ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نُقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وما نُقل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما نُقل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم.^{١٠٧}

حكم التفسير بالمأثور هو الذي يجب اتباعه والأخذ به، لأنه طريق المعرفة الصحيحة. وهو آمن سبيل للحفاظ من الزلل والزيغ في كتاب الله. وقد رُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: "التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه أحد إلا الله.^{١٠٨}

١. تفسير القرآن بالقرآن:

وهذا النوع من التفسير هو الذي أبرزه المؤلف في تفسيره واعتنى به عناية كبيرة؛ بل أفرده بدراسة قيّمة في مقدمة تفسيره، لا أحسبك تجدها بهذا الجمع والترتيب عند سواه، ولولا أنه ذكر من أنواع بيان القرآن بالقرآن أكثر من عشرين نوعاً في أكثر من عشرين صفحة لسقتها لك بحذافيرها؛ فهي الكنز عليك به من معدنه، وتعجب حين تقرأ له بعد أن عدّد هذه الأنواع قوله: "واعلم، وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه أن هذا الكتاب المبارك يعني: تفسيره تضمن أنواعاً كثيرة جداً من بيان القرآن بالقرآن غير ما ذكرنا، وتركنا ذكر غير هذا منها خوف إطالة الترجمة، والمقصود بما ذكرنا من الأمثلة مطلق بيان كثرة الأنواع التي تضمنها واختلاف جهاتها، وفي البعض تنبيه لطيف على الكل والغرض

^{١٠٦} فهد عبد الرحمن الرومي، دراسات في علوم القرآن الكريم، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، (حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ٢٠٠٣)، ١٥١.

^{١٠٧} محمد حسين الذهبي، تفسير والمفسرون مجلد ١، ١١٢.

^{١٠٨} مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ٣٦٠.

أن يكون الناظر في الترجمة على بصيرة مما يتضمنه الكتاب في الجملة قبل الوقوف على جميع ما فيه".^{١٠٩}

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَنْ أَرَادَ تَفْسِيرَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، طَلَبَهُ أَوَّلًا مِنَ الْقُرْآنِ فَمَا أُجْمِلَ مِنْهُ فِي مَكَانٍ فَقَدْ فُسِّرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَمَا اخْتَصَرَ فِي مَكَانٍ فَقَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْهُ.^{١١٠} أجمع العلماء على أن أهم ما يفسر القرآن هو القرآن نفسه، من ذلك قول ابن تيمية رحمه الله: "فإن قال قائل: فما أحسن طريق للتفسير؟" والجواب: "أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسّر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر".^{١١١}

مثال ما جاء في القرآن: قوله سبحانه: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)^{١١٢}، فإن كلمة "من الفجر" بيان وشرح للمراد من كلمة الخيط الأبيض التي قبلها. وكذلك قوله سبحانه: (قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

^{١٠٩} فهد عبد الرحمن الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر مجلد ٢، (طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة: السعودية، ١٩٨٦)، ٥٢٣.

^{١١٠} عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن مجلد ٤، (الهيئة المصرية العامة للكتاب: مصر، ١٩٧٤)، ٢٠٠.

^{١١١} محمد عمر الحاجي، موسوعة التفسير قبل عهد التدوين، (دار المكتبي: دمشق، ٢٠٠٧)، ١٨٩.

^{١١٢} سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

الْحُسْرَيْنِ) ^{١١٣}، فإنها بيان للفظ كَلِمَاتٍ من قوله تعالى: (فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) ^{١١٤}، على بعض وجوه التفاسير. ^{١١٥}

٢. تفسير القرآن بالسنة

أما تفسير القرآن بالسنة ومن أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أورد رحمه الله تعالى عددًا كثيرًا منها، وهذه بعضها، فمن ذلك: تفسيره لقوله تعالى: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) ^{١١٦}، قال: "قال جماهير من علماء التفسير: "المغضوب عليهم" اليهود "الضالون" النصارى، وقد جاء الخبر بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه" ^{١١٧}. وفي تفسير القرآن بالسنة النبوية، تعرض لأهمية هذا المصدر، وتعرض لذكر الأنواع المستنبطة في تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن. ^{١١٨} مثال: أخرج مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) ^{١١٩}. ألا إن

^{١١٣} سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

^{١١٤} سورة البقرة، الآية: ٣٧.

^{١١٥} حسن محمد أيوب، الحديث في علوم القرآن والحديث، (دار السلام: الإسكندرية، ٢٠٠٤)،

. ١٣٧

^{١١٦} سورة الفاتحة، الآية: ٧.

^{١١٧} فهد عبد الرحمن الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر مجلد ٢، ٥٢٨.

^{١١٨} مساعد سليمان الطيار، فصول في أصول التفسير، (دار ابن الجوزي، ١٤٢٣).

^{١١٩} سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

القوة الرمي. وأخرج البخاري ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكوثر:

(إنه نهر وعدنيه ربي في الجنة).^{١٢٠}

٣. تفسير القرآن بأقوال الصحابة

كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله، ولم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعوا في ذلك إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم، وهذا بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واجتهاد، أما ما يمكن فهمه بمجرد معرفة اللغة العربية فكانوا لا يحتاجون في فهمه إلى إعمال النظر، ضرورة أنهم من خُصِّص العرب، يعرفون كلام العرب ومناحيهم في القول، ويعرفون الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد من ذلك في الشعر الجاهلي الذي هو ديوان العرب.^{١٢١} وهي الدرجة الثالثة من التفسير بالمأثور، وقد أورد الأستاذ محمد رشدي حمادي كثيراً من هذا النوع من التفسير في تفسيره، نذكر منه: في تفسيره: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)^{١٢٢}، قال: "وعن ابن عباس في قوله تعالى: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) أي: قاضي يوم الدين، وهو يوم الحساب والقضاء فيه بين الخلائق؛ أي: يوم يدان فيه الناس بأعمالهم لا قاضي غيره".^{١٢٣}

٤. تفسير القرآن بأقوال التابعين

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر؛ فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق:

^{١٢٠} إبراهيم محمد الجرمي، معجم علوم القرآن، (دار القلم: دمشق، ٢٠٠١)، ١٠٠.

^{١٢١} محمد حسين الذهبي، تفسير والمفسرون مجلد ١، ٤٥.

^{١٢٢} سورة الفتحة، الآية: ٤.

^{١٢٣} فهد عبد الرحمن الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر مجلد ٢، ٥٤١.

حدثنا أبان بن صالح، عن مجاهد قال: عرضتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها. وبه إلى الترمذي، قال: حدثنا الحسين بن مهدي البصري، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، قال: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً. وبه إليه قال: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الأعمش؛ قال: قال مجاهد: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب قال: حدثنا طلق بن غنام، عن عثمان المكي، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ؛ قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواح، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله؛ ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.^{١٢٤}

والمراد بهم من أتى بعد الصحابة من أهل العلم بالقرآن، قبل انتشار التدوين، كما سيأتي في "تاريخ التفسير". فينظر في كلامهم في التفسير عند فقد الأثر عن الصحابة، وذلك على سبيل الاستحباب، فقد كان عهدهم قريباً من عصر النبوة، وحملوا العلم عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وتعلموا عليهم، وتأدّبوا بأدبهم، مع ما أوتوا وعرفوا به من الدين، والصدق، والأمانة، وصحة الاعتقاد، وسلامة المنهاج، والبعد عن التكلف.^{١٢٥}

(ب). التفسير بالرأي

^{١٢٤} تقي الدين أبو العباس ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، ٤٤.

^{١٢٥} عبد الله يوسف العنزي، المقدمات الأساسية في علوم القرآن، (بريطانيا: مركز البحوث الإسلامية

ليدز، ٢٠٠١)، ٣٠٨.

يُطلق الرأى على الاعتقاد، وعلى الاجتهاد، وعلى القياس، ومنه: أصحاب الرأى: أى أصحاب القياس. والمراد بالرأى هنا "الاجتهاد" وعليه فالتفسير بالرأى.^{١٢٦} وتفسير بالدراية ويسمى التفسير بالرأى.^{١٢٧} أما التفسير بالرأى فقد اختلف العلماء حوله، فمن محرم له، ومن مجوز، لكن اختلافهم يقول في الحقيقة إلى أن المحرم منه هو الجزم بأن مراد الله كذا من غير برهان، أو محاولة تفسير الكتاب الكريم مع جهل المفسر بقواعد اللغة وأصول الشرع، أو تأييد بعض الأهواء بآيات من القرآن زورا وبهتانا، أما إذا كانت الشروط المطلوبة متوافرة في المفسر فلا مانع من محاولته التفسير بالرأى، بل لعنا لا نبعد إن قلنا: إن القرآن نفسه يدعو إلى هذا الاجتهاد في تدبر آياته وفقه تعالیه، قال تعالى: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)^{١٢٨} وقال: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ).^{١٢٩}

والأمور التي يجب استناد الرأى إليها في التفسير نقلها السيوطي في الإتقان عن الزركشي فقال ما ملخصه: للناظر في القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة (يستمد منها تفسيره) أمهاتها أربعة:

- الأولى: النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع التحرز عن الضعيف والموضوع.
- الثانية: الأخذ بقول الصحابي، فقد قيل: إنه في حكم المرفوع مطلقا، وخصه بعضهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأى فيه.

^{١٢٦} محمد حسين الذهبي، تفسير والمفسرون مجلد ١، ١٨٣.

^{١٢٧} حسن محمد أيوب، الحديث في علوم القرآن والحديث، ١٣٦.

^{١٢٨} سورة محمد، الآية: ٢٤.

^{١٢٩} صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ٢٩١-٢٩٢.

- الثالثة: الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلى ما لا يدل عليه الكثير من كلام العرب.

- الرابعة: الأخذ بما يقتضيه الكلام وتدلل عليه الأصول الشرعية، وهذا النوع الرابع هو الذي دعا به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس في قوله: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل".^{١٣٠}

فمن فسر القرآن برأيه أي باجتهاده ملتزماً بالوقوف عند هذه المآخذ معتمداً عليها فيما يرى من معاني كتاب الله كان تفسيره سائغاً جائزاً خليقاً بأن يسمى التفسير الجائز أو التفسير المحمود ومن حاد عن هذه الأصول وفسر القرآن غير معتمد عليها كان تفسيره ساقطاً مردولاً خليقاً بأن يسمى التفسير غير الجائز أو التفسير المذموم.^{١٣١}

ذكر ابن عاشور في المقدمة الثالثة من تفسيره موقفه من التفسير بالرأي، وهو يرى أن تفسيراً كثيراً للقرآن لم يكن من المأثور عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وأن التفاسير قد اتسعت، وتفنن أصحابها في استنباط معاني القرآن، بما رزقهم الله من فهم كتاب الله. ويقول: " لو كان التفسير مقصوراً على بيان معاني مفردات القرآن من جهة العربية لكان التفسير نزراً، ونحن نشاهد

^{١٣٠} حسن محمد أيوب، الحديث في علوم القرآن والحديث، ١٥٣.

^{١٣١} محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن مجلد ٢، (مطبعة عيسى البابي الحلبي

وشركاه، د.ت)، ٥٠.

كثرة أقوال السلف من الصحابة فمن يليهم في تفسير القرآن وما أكثر ذلك الاستنباط برأيهم وعلمهم " ١٣٢.

وإذ قد علمنا أن التفسير بالرأى قسمان: قسم مذموم غير جائز، وقسم ممدوح جائز، فلا بد لنا من أن نعرض هنا لما ذكره من العلوم التي يحتاج إليها المفسر، وما ذكره من الأدوات التي إذا توافرت لديه وتكاملت فيه، خرج عن كونه مفسراً للقرآن بمجرد الرأى، ومحض الهوى. اشترط العلماء في المفسر الذي يريد أن يُفسر القرآن برأيه بدون أن يلتزم الوقوف عند حدود المأثور منه فقط، أن يكون مُلمّاً بجملة من العلوم التي يستطيع بواسطتها أن يُفسر القرآن تفسيراً عقلياً مقبولاً، وجعلوا هذه العلوم بمثابة أدوات تعصم المفسر من الوقوع في الخطأ، وتحميه من القول على الله بدون علم. وإليك هذه العلوم مفصلة، مع توضيح ما لكل علم منها من الأثر في الفهم وإصابة وجه الصواب:

- (١). علم اللغة: لأن به يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع.
- (٢). علم النحو: لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلا بد من اعتباره.
- (٣). علم الصرف: وبواسطته تُعرف الأبنية والصيغ.
- (٤). الاشتقاق: لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين، اختلف باختلافهما، كالمسيح مثلاً، هل هو من السياحة أو من المسح؟
- (٥). علوم البلاغة الثلاثة "المعاني، والبيان، والبديع": وهذه العلوم الثلاثة من أعظم أركان المفسر، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وذلك لا يُدرك إلا بهذه العلوم.

١٣٢ عبير بنت عبد الله النعيم، قواعد الترجيح المتعلقة بالنص عند ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير: دراسة تأصيلية تطبيقية، أطروحة دكتوراة، (الرياض: المملكة العربية السعودية، ٢٠١٥)، ٧٤.

(٦). علم القراءات: إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض.

(٧). علم أصول الدين: وهو علم الكلام، وبه يستطيع المفسّر أن يستدل على ما يجب في حقه تعالى، وما يجوز، وما يُستحل، وأن ينظر في الآيات المتعلقة بالنبوات، والمعاد، وما إلى ذلك نظرة صائبة، ولولا ذلك لوقع المفسّر في ورطات.

(٨). علم أصول الفقه: إذ به يعرف كيف يستنبط الأحكام من الآيات ويستدل عليها، ويعرف الإجمال والتبيين، والعموم، والخصوص، والإطلاق، والتقييد، ودلالة الأمر والنهي، وما سوى ذلك من كل ما يرجع إلى هذا العلم.

(٩). علم أسباب النزول: إذ أن معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد من الآية.

(١٠). علم القصص: لأن معرفة القصة تفصيلاً يعين على توضيح ما أجمل منها في القرآن.

(١١). علم الناسخ والمنسوخ: وبه يعلم المحكوم من غيره. ومَن فقد هذه الناحية، ربما أفتى

بحكم منسوخ فيقع في الضلال والإضلال.

(١٢). الأحاديث المبيّنة لتفسير المجمل والمبهم، ليستعين بها على توضيح ما يشكك عليه.

(١٣). علم الموهبة: وهو علم يُورثه الله تعالى لمن عمل بما علم، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

"واتقوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ" ١٣٣، وبقوله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ عَمِلَ بِمَا عِلْمُ اللَّهِ عَزَّ اللَّهُ عَمَّا لَا

يَعْلَمُ".

هذه هي العلوم التي اعتبرها العلماء أدوات لفهم كتاب الله تعالى، وقد ذكرناها مسهبة مفصّلة، وإن كان بعض العلماء ذكر بعضاً وأعرض عن بعض آخر، ومنهم من أدمج بعضها في بعض وضغطها حتى كانت أقل عدداً مما ذكرنا، وليس هذا العدد الذي ذكرنا حاصراً لجميع العلوم التي يتوقف عليها التفسير.^{١٣٤}

وأما التفسير المذموم، فهو أن يفسر القرآن بدون علم عنده أو يفسره حسب هواه ومقتضى مذهبه، مع جهله بمعرفة اللغة العربية أو التشريعات الإلهية، أو يحمل كلام الله تعالى على معنى لا يليق به، أو يخوض في الأشياء التي استأثر الله تعالى بعلمها. ويجزم بأن المراد من كلام الله كذا وكذا على غير حق، فهذا النوع من التفسير يسمى "التفسير المذموم" أو الباطل، ولا شك أن صاحبه يأثم بهذا العمل، ومما لا شك فيه أن تفسير القرآن العظيم لا يناله ولا يصل إليه من في قلبه بدعة أو كبر أو حب الدنيا أو ميل إلى المعاصي وفي هذا قال الله تعالى: (سَاصِرْفُ عَنَّا الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ).^{١٣٥}

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور، ونور الله لا يهدى لعاصوا الله تعالى أعلم.^{١٣٦}

^{١٣٤} محمد حسين الذهبي، تفسير والمفسرون مجلد ١، ١٨٩-١٩٢.

^{١٣٥} سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

^{١٣٦} محمد أحمد محمد معبد، نفحات من علوم القرآن، (القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٥)، ١٣٧.

والغزالي وغيره من العلماء الذين سَوَّغوا تفسير القرآن بالرأي، بل إن عباراتهم تومئ بوجوده في غير موضع الأثر المروي عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بسند صحيح، هؤلاء قد منعوا التفسير بالرأي في موضعين يكون الرأي فيهما مذموماً:

أول هذين الموضعين أن يفسر القرآن بهواه، أو أن يحاول حمل الآيات على مذهبه أو رأيه، بأن يكون له في موضوع الآية رأي معين، وله ميل له بطبعه، فيتأول القرآن على وفق رأيه ليحتج به، ولو لم يكن له ذلك المذهب ما كان يظهر له ذلك التفسير، وإنه ليتجه ذلك الاتجاه، ويتول ظاهر الآية لتساير مذهبه، وينزلها عن علياء بيانها إلى حيث رأيه. وأحياناً يفعل ذلك غير قاصد حمل الآية على مقتضى رأيه، ولكن امتلاء عقله وقلبه بهذا الرأي يجعله يتجه إليه غير قاصد مجرد ترجيح مخيلته، ويلبس عليه الأمر فيظن ما قاله ظاهراً، وما هو بظاهر. فهذا بلا ريب تفسير بالرأي مذموم، ويكون من المنهي عنه؛ لأن القرآن الكريم فوق الآراء والمذاهب، وليس خاضعاً لها. وإنه من نوع تفسير القرآن بالهوى لا بالرأي المبني على النظر الخالص لوجه الحقيقة.^{١٣٧}

الموضع الثاني الذي يكون فيه التفسير بالرأي مذموماً: يكون في المسارعة إلى تفسير القرآن بظواهر الآيات، والاقتنار على هذه الظواهر من غير تعرف للمنقول في موضوعها، ومن غير مقابلة الآيات بعضها ببعض، ومن غير تعرف للعرف الإسلامي الذي خصص بعض الألفاظ العربية، ومن غير علم دقيق بأساليب الاستنباط من القرآن من حمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، ومن غير إدراك مواضع الإضمار والحذف والتقديم والتأخير، وغير ذلك من الأساليب البيانية القرآنية

^{١٣٧} محمد المعروف بأبي زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، (دار الفكر العربي، د.ت)، ٤٠٨.

المعجزة. فإنَّ ذلك يكون مدمومًا؛ لأنَّه تفسير بالرأي من غير إدراك لمعاني الألفاظ في عرف الإسلام، وبغير مؤهلات، واجتهاد في الفهم من غير التسلَّح بأدواته، وحينئذ يكون الخطأ ويكون السقط. فهذان هما الموضوعان اللذان يذمُّ الرأي فيهما. وفي الحق أنَّ هذا ليس تفسيرًا بالرأي المجرَّد، إنما هو من الهوى أو التهجم، والتهجُّم على ما لا يحسن، والعمل فيما لا يتقن، وذلك قبيح في كل شيء.^{١٣٨}

وعند عبد الحي الفرماوي أساليب التفسير ينقسم على أربعة :

أ. التفسير التحليلي:

أما التفسير التحليلي فهو مأخوذ من الحل، بمعنى الفتح ونقض المنعقد.^{١٣٩} هذا القسم هو الغالب على التفاسير، ويعمد المفسر بهذا الأسلوب إلى التحليل في الآية، فيبين سبب نزولها، وبيان غريبها، وإعراب مشكلها، وبيان مجملها إلخ، ومن أمثلته تفسير ابن عطية والآلوسي والشوكاني وغيرهم.

ب. التفسير الإجمالي:

يعمد المفسر بهذا الأسلوب إلى بيان المعنى العام للآية دون التعرض للتفاصيل؛ كالإعراب واللغة والبلاغة والفوائد وغيرها. ومن أمثلته: تفسير الشيخ عبد الرحمن بن سعدي، وتفسير المكي الناصري، وتجده. كذلك في تفسير المراغي وأبي بكر الجزائري تحت عنوان "المعنى الإجمالي".

ج. التفسير المقارن:

^{١٣٨} محمد المعروف بأبي زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، ٤٠٨.

^{١٣٩} مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، (مصر:

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٢)، ٢٧٨.

يعتمد المفسر بهذا الأسلوب إلى قولين في التفسير، ويقارن بينهما مع ترجيح ما يراه راجحاً. ومن أمثلته تفسير ابن جرير الطبري، وغيره ممن يذكر أقوال المفسرين ويرجح بعضها على بعض. ومنه ما يقوم به الآن أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري من عرضه في الإذاعة لتفسيره المسمى "تفسير التفاسير" ١٤٠.

د. التفسير الموضوعي :

يعتمد هذا الأسلوب على دراسة لفظة، أو جملة، أو موضوع في القرآن، وهو أقسام:

١. أن يكون عرض الموضوع من خلال القرآن كله؛ كموضوع (صفات عباد الرحمن في القرآن).
٢. أن يكون عرض الموضوع من خلال سورة؛ كموضوع (الأخلاق الاجتماعية في سورة الحجرات).

٣. أن يستعرض المفسر لفظة أو جملة قرآنية، ويبين معانيها في القرآن؛ كلفظة "الامة في القرآن"، وجملة (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِيمِينَ^{١٤١}) في القرآن^{١٤٢}

^{١٤٠} مساعد سليمان الطيار، فصول في أصول التفسير، ٣٢-٣٣.

^{١٤١} سورة المائدة، الآية: ٥٢.

^{١٤٢} مساعد سليمان الطيار، فصول في أصول التفسير، ٣٣-٣٤.

د. الاتجاهات التفسير

الاتجاه هو تأثير الاعتقادات الدينية، الكلامية، الاتجاهات العصرية وأساليب كتابة التفسير، والتي تتكون على أساس عقائد واحتياجات وذوق وتخصص المفسر.

ومن أهم الاختلافات بين المنهج والاتجاه هي:

١. يعتمد بحث المناهج على أساس كيفية كشف المعنى ومقصود الآية.
٢. يتشكل بحث المناهج على أساس المصادر والادوات التفسيرية (مثل استخدام العقل والروايات).
٣. أكثر ما يطرح في بحث "الاتجاهات" هو شخص المفسر، أي اعتقادات وأذواق واتجاهات شخص المفسر والتي تعطي التفسير وجهة محددة، وتطبعه بطابع خاص.
٤. تطرح في بحث "الاتجاهات" مسألة متن التفسير، بأي أسلوب كتب؟ وما هي أكثر المطالب التي يتضمنها من مسائل كلامية، أو أدبية، أو غيرها.^{١٤٣}

أ. الإتيان التفسير الفقهي

التفسير الفقهي هو التفسير الذي يعنى فيه بدراسة آيات الأحكام وبيان كيفية استنباط الأحكام منها. وهذا التفسير بهذه الصفة يتميز بمزيد من دقة الفهم، وعمق الاستنباط، ويسمح بإعمال الذهن في المناقشة والموازنة بين الآراء أكثر من غيره، مما يجعل له أهمية أكبر. ويلزم بالاعتناء به أكثر. ويرجع ابتداء هذا التفسير إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فقد فسّر للصحابة كثيرا من آيات القرآن وبيّن لهم أحكامه بأنواع البيانات. ثم جاء الصحابة وراحوا يعالجون ما يجد لهم من الأمور،

^{١٤٣} محمد علي الرضائي الإصفهاني، دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، ١٩.

وكانوا يبحثون أولاً في كتاب الله تعالى ثم في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يجتهدون، فكان من المتوقع أن تختلف اجتهاداتهم في فهم بعض الآيات واستنباط الأحكام منها.^{١٤٤} وهكذا ظهرت التفاسير الفقهية للقرآن وكثرت وكان أكثرها يقتصر على تفسير آيات الأحكام، وفسر بعضها القرآن كله. ونعرف القارئ بأشهر تفسيرين فقهيين وهما: (أحكام القرآن) للرازي الجصاص و (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي.^{١٤٥}

إن المفسر في الاتجاه الفقهي غالباً ما يهتم بالعناصر التالية:

١. تفسير الآيات التي تتضمن أحكاماً فقهية تخص حياة الإنسان، وتبين تكليفه عن طريق الواجب، المستحب، الحرام، المكروه، والمباح، في أبواب العبادات والمعاملات.
٢. اهتمام المفسر يمكن في استنباط الأحكام الشرعية الفرعية عن طريق آيات القرآن.
٣. عادة ما يكون المفسر لآيات الأحكام مجتهداً في الفقه، حيث يقوم ببيان رأيه في نهاية المطاف.
٤. عادة ما يستخدم المفسر في هذا الاتجاه المنهج الفقهي في التحليل ويستفيد من الكتاب والسنة والاجماع والعقل.

^{١٤٤} نور الدين عتر الحلبي، علوم القرآن الكريم، (دمشق: مطبعة الصباح، ١٩٩٣)، ١٠٣.

^{١٤٥} نور الدين عتر الحلبي، علوم القرآن الكريم، ١٠٤.

٥. يتنوع التفسير الفقهي تبعاً للمباني التي يختارها المفسر في الفقه والأصول، فإذا ما ذهب المفسر الفقيه إلى حجية الكتاب، أو الخبر الواحد، أو الإجماع، فإن نتائج التفسير سوف تختلف عن المفسر الذي لا يعتقد بحجيتها.^{١٤٦}

ب. الإتجاه التفسيري اللغوي

التفسير اللغوي: بيان معاني القرآن بما ورد في لغة العرب. أمّا الشقُّ الأولُ من التعريف، وهو بيان معاني القرآن: فإنه عامٌ يشملُ كلَّ مصادرِ البيانِ في التفسيرِ؛ كالقرآن، والسُّنَّة، وأسباب النزول، وغيرها. وأمّا الشقُّ الثاني منه، وهو بما ورد في لغة العرب: فإنه قيّد واصفٌ لنوعِ البيانِ الذي وَقَعَ لتفسيرِ القرآن، وهو ما كان طريقاً بيانه عن لغة العرب. وبهذا النوع من البيان يخرج ما عداه من أنواع البيان؛ كالبيان الكائن بأسباب النزول وقصص الآي، أو غيرها مما ليس طريق معرفته اللُّغَةُ. كما يخرج بهذا القيد ما كان طريق بيانه بغير لغة العرب، كمن يُفسَّرُ بمدلولاتٍ لا تُعرفُ عند العرب؛ كالمصطلحات الحادثة.^{١٤٧} وإلى جانب التفسير في مجال الأحكام الشرعية، والروايات حول القصص القرآني كانت هناك حركة لغوية لتفسير القرآن وإعرابه. فكما دَوّنت علوم اللغة والنحو أثرت مشكلات لغوية ونحوية في رحاب القرآن الكريم "فالتحويون أخذوا القرآن الكريم مادة من موادهم لاشتقاق قواعدهم وتطبيقها فأعربوا القرآن إعراباً أعان على تفسيره".^{١٤٨}

^{١٤٦} محمد علي الرضائي الإصفهاني، دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، ٢٦٦.

^{١٤٧} مساعد سليمان ناصر الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، (دار ابن الجوزي، ١٤٣٢)، ٣٨.

^{١٤٨} عبد العال سالم مكرم، المشترك اللفظي في الحقل القرآني، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧)،

والمراد بما وردَ في لغة العرب: ألفاظها وأساليبها التي نزلَ بها القرآنُ. وقد أشارَ إلى هذا الشَّاطِئِي (ت: ٧٩٠)، فقال: "فإن قلنا إنَّ القرآنَ نزلَ بلسانِ العربِ، وإنَّه عربيٌّ، وإنه لا عَجْمَةٌ فيه، فيعني أنه أنزلَ على لسانِ معهودِ العربِ في ألفاظها الخاصةِ وأساليبِ معانيها، وأنها فيما فُطِرَتْ عليه من لسانها تُخاطَبُ بالعامِّ يُرادُ به ظاهره، وبالعامِّ يرادُ به العامُّ في وجهِ الخاصِّ في وجهه، وبالعامِّ يُرادُ به الخاصُّ، وظاهرٌ ويُرادُ به غيرُ الظاهرِ، وكلُّ ذلك يُعرَفُ من أوَّلِ الكلامِ أو وسطه أو آخره".^{١٤٩}

ج. الإتجاه التفسيري الصوفي

قلنا من التفسير الصوفي إن هذا التفسير يغلب عليه الطابع الصوفي لكثرة ما فيه من التأويلات الإشارية، والشطحات الصوفية، والمواجيد التي تقرؤها للمؤلف في تفسيره للآيات القرآنية، وإليك بعض المثل لتعرف مقدار طغيان هذه الناحية على باقي النواحي في هذه التفسير. ^{١٥٠} أما ابن عطاء السكندري الصوفي الشهير فإنه يوضح المفهوم الحقيقي لهذا النوع من التفسير «التفسير الصوفي» فيقول: اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني الغريبة ليس إحالة لظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه، ما جلبت له الآية ودلت في عرف اللسان، وثم افهام باطنه تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه، وقد جاء في الحديث: «لكل آية ظهر وبطن» ثم يرد على من يقول: إن في هذا النوع من التفسير إحالة لكلام الله وكلام رسوله وصرفا لهما عن معانيهما وما يقصد بهما، فيقول: ليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا وهم لم يقولوا

^{١٤٩} مساعد سليمان ناصر الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، ٣٩.

^{١٥٠} محمد حسين الذهبي، تفسير والمفسرون مجلد ٢، (مصر: دار الكتب الحديثة، ١٩٧٦)، ١٥٢.

ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مراداً بها، موضوعاتها ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم.^{١٥١}

د. الإتجاه التفسيري العلمي

معنى التفسير العلمي: التفسير الذي يُحْكِمُ الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها. التوسع في هذا النوع من التفسير وكثرة القائلين به وقد وقع هذا النوع من التفسير، واتسع القول في احتواء القرآن كل العلوم ما كان منها وما يكون، فالقرآن في نظر أصحاب هذه الطريقة يشمل إلى جانب العلوم الدينية الاعتقادية والعملية سائر علوم الدنيا على اختلاف أنواعها، وتعدد ألوانها.^{١٥٢}

والمراد به تفسير الآيات التي تتحدث عن الكون وخلق الإنسان ونحو ذلك، بما توصل إليه العلم الحديث من اكتشاف وإطلاع على حقائق لم يهتد إليها عموم الناس من قبل. وهذا فن من التفسير لا يغفل أثره في إعجاز القرآن، وزيادة الإيمان، لكثي أراه لا يقبل إلا بشروط ثلاثة:

١ - أن لا يصادم أصلاً معلوما بنفس دلالة القرآن أو صحيح السنّة.

٢ - أن يحتمله اللفظ من جهة اللّغة.

٣ - أن يكون حقيقة علمية ثبتت بالبراهين، لا مجرد نظرية محتملة، خشية أن تجعل نصوص

القرآن غرضاً لتجارب الناس.

^{١٥١} منيع عبد الحليم محمود، *مناهج المفسرين*، (القاهرة: دار الكتاب المصري، ٢٠٠٠)، ٣٤.

^{١٥٢} محمد حسين الذهبي، *تفسير والمفسرون* مجلد ٢، ٣٤٩.

فإذا اجتمعت هذه الشروط فلا مانع من قبول هذا النوع من التفسير، فإنَّ الله تعالى قال:
 (سُنُّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) في سورة فصلت: ١٥٣.٥٣ مثاله
 (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) لطنطاوي جوهري. ١٥٤

هـ. لمحة عن الكتاب تفسير القرآن الكريم جزء عم محمد بن صالح العثيمين

وقد اعتنى علماء الإسلام رحمهم الله تعالى بكتاب الله عز وجل عنايةً بالغيةً، ومن وجوه هذه
 العناية تفسير القرآن الكريم، وبيان معانيه، واستنباط الأحكام والفوائد من آياته، على حسب ما آتاهم
 الله عز وجل من العلم والإيمان، والفهم والتقوى.

ومن هؤلاء العلماء فضيلة شيخنا العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله رحمةً
 واسعةً، وأسكنه فسيح جناته، حيث عقد المجالس، لتفسير كتاب الله عز وجل، واستنباط الفوائد
 والأحكام منه، في حلّه وترحاله، ومن هذه المجالس اللقاء المسمى بلقاء الباب المفتوح، وحيث مرَّ الله
 عز وجل على فضيلته بإتمام تفسير جزء عم، وقدم بسورة الفاتحة، وقد عرضتُ على فضيلة شيخنا
 رحمه الله تعالى إخراج هذا التفسير فوافق على ذلك، ولكنه لم يتمكن من مراجعته بعد تفرغه من
 الأشرطة سوى سورة الفاتحة وسورة النبأ إلى قوله تعالى (الْأَحْمِيماً وَعَسَاقًا^{١٥٥})، كما قال فهد بن

^{١٥٣} عبد الله يوسف العنزي، المقدمات الأساسية في علوم القرآن، ٣٩٠.

^{١٥٤} عبد القادر محمد منصور، موسوعة علوم القرآن، (حلب: دار القلم العربي، ٢٠٠٢)، ١٨٨.

^{١٥٥} سورة النبأ، الآية: ٢٥.

ناصر السليمان في مقدمة تفسير جزء عمّ للشيخ محمد بن صالح العثيمين. ولا يخفى أن المنقول من الأشرطة ليس كالمحرّر من حيث انتقاء الألفاظ، وتحريم العبارة، والبُعد عن التكرار، وغير ذلك.^{١٥٦}

فإن الحديث عن منهج إمام من أئمة الدين في علم كان من اهتماماته، وأمضى فيه جزءاً من عمره، وخصّه بنصيب وافر من دروسه، وكثيراً ما وجّه طلابه للعناية به، بل والبداة به، حديث لا يمكن أن تستوعبه مقالة كهذه، ولذا سيكون الحديث فيها منصباً على بعض منهجه في تفسيره، وقيل الحديث عن منهجه أشير إلى موضوعين متعلقين بتفسيره :

أ. دروسه في التفسير، حيث كان تفسيره القرآن لطالبه على ثلاثة طرق :

١. الطريق الأول : التفسير العام، حيث لم يرتبط الشيخ بكتاب تفسير ينطلق منه، وهذا يشمل الدرس الخاص بالطلبة، وابتدأ الشيخ التفسير فيه من أول القرآن، وانتهى فيه إلى سورة الأنعام، ولم يتمها ويشمل تفسيره في اللقاءات العامة، حيث فسّر الشيخ خلالها كثيراً من المفصل، ومواضع متفرقة من القرآن.

٢. الطريق الثاني : التفسير الذين ارتبط فبه الشيخ بتفسير الجلالين، فكان منطلقاً له ولم يقتصر عليه، وبلغ فيه سورة الزخرف ولم يتمها أيضاً.

٣. الطريق الثالث : التفسير المفرّق، ويتمثل في تفسير الشيخ للآيات التي تمر في أثناء شرحه لكتاب ما، وهي كثيرة، وربما أسهب الشيخ في تعليقه عليها، ورجّح فيها.

^{١٥٦} محمد صالح العثيمين، تفسير جزء عم، (الرياض: مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية،

ومع تعدد الطرق التي تناول الشيخ التفسير من خلالها إلا أن منهجه فيها متقارب، حيث اتفقت في كثير من المعالم.^{١٥٧} وفي التفسير: فسّر القرآن الكريم والقواعد الحسان ومقدمة التفسير، وله مؤلف لم يتم في أحكام القرآن، سمعته يقول: استخرجت من آية القصاص نحو ثمانين فائدة، ودرس تفسير الجلالين.^{١٥٨}

من بعد صلاة المغرب حتى أذان العشاء في ليلة الأربعاء وليلة الجمعة الشيخ محمد العثيمين دروس من أول القرآن، ولم يكن هناك كتاب بين يدي الطلاب، بل كان الشيخ يشرح من المصحف مباشرة. وقد اعتمد في شرحه متناً بين يدي الطلاب، وهو تفسير الجلالين، إلا أن التسجيل الصوتي لهذه الدروس بدأ متأخراً.^{١٥٩}

ب. مصادر في تفسيره :

الغالب في طريقة الشيخ رحمه الله ألا يذكر مصادره التي نقل منها، ولا أسماء العلماء الذين يذكر أقوالهم، بل تراه ييهم أسماءهم، ويذكر الأقوال منسوبة إلى بعض أهل العلم، أو بعض المفسرين دون تحديدهم، إلا أنه قد ينص في بعض الأحيان على بعضهم.^{١٦٠} المراجع محمد صالح العثيمين في تفسير جزء عم هي :

١. كلام الله تعالى بحيث يفسر القرآن بالقرآن.

^{١٥٧} ناصر الزهراني، ابن عثيمين الإمام الزاهد، (السعودية: دار ابن الجوزي، ٢٠٠١ م)، ٧٢٦-٧٢٧.

^{١٥٨} إحسان العتيبي، وقفات في حياة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله، ... ١٠٦.

^{١٥٩} إحسان العتيبي، وقفات في حياة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله، ... ١١١-١١٣.

^{١٦٠} ناصر الزهراني، ابن عثيمين الإمام الزاهد، ... ٧٢٧.

٢. سنة الرسول ﷺ، لأنه المبلغ عن الله تعالى، وهو أعلم الناس بمراد الله تعالى في كتاب الله تعالى.

٣. كلام الصحابة رضي الله عنهم، لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير، لأن القرآن الكريم نزل بلغتهم وفي عصرهم.

٤. كلام كبار التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم.

٥. ما تقضيه الكلمات من المعنى اللغوية أو الشرعية حسب السياق القرآني، والشيخ رحمه الله لا يتفرد برأيه في تفسير الآية، بل يورد أقوال العلماء في أوجه تفسيرها، ثم يذكر ما يراه الراجح عنده في ذلك.^{١٦١}

ج. المنهج العام للشيخ في التفسير :

لقد كان الشيخ رحمه الله موسوعي المعرفة، درس علوم الشريعة وتفقه فيها، وكان لها الأثر الواضح في تفسيره. وقد عمد الشيخ إلى تقريب التفسير لعامة الناس فضلاً عن طلابه والمستفيدين منه، فالسهولة في العبارة والبعد عن غامض التراكيب واضح في العرض، ولذا خلا تفسير الشيخ من الأقوال الكثيرة، والتفريعات البعيدة التي قد تجدها في بعض التفاسير، وكذا التعقيدات البلاغية، أو الأعراب المطولة.^{١٦٢}

^{١٦١} إبراهيم محمد العالي، إبراهيم باجي عبد المجيد، علماء ومفكرون معاصرون لمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم محمد صالح العثيمين العالم القدوة المري والشيخ الزاهد الورع أونلاين، ... ٧٩-٨٢.

^{١٦٢} ناصر الزهراني، ابن عثيمين الإمام الزاهد، ... ٧٢٧-٧٢٨.

وقال الشيخ خالد بن عبدالرحمن الشايع: الشيخ محمد بن صالح العثيمين إمام علم وعالم جهيد، فقد كان رحمه الله على جانب عظيم من العلم بشريعة الله، وقد لحظ العلماء ماحبا الله الشيخ من البصيرة في دين الله، فقد كان متمكناً من فنون العلم المختلفة، فإن نظرت إلى علمه بكتاب الله وتفسيره فالشيخ لا يشق له غبار في ذلك، فقد كان له من استحضر الكتاب العزيز واستظهاره ما كأن السامع له يقول: إنه منشور بين ناظره، وزان ذلك تمكنه من علوم القرآن بما يمكنه من الاستنباط وانتزاع الدلالات على مختلف المسائل.^{١٦٣}

وقال الشيخ عبدالرحمن الصالح الدهش: وقد عمد الشيخ رحمه الله إلى تقريب التفسير لعامة الناس فضلاً عن طلابه والمستفيدين منه، فالسهولة في العبارة والبعد عن غامض التراكيب واضح في العرض، ولذا خلا تفسير الشيخ من الأقوال الكثيرة والتعريفات البعيدة التي قد تجدها في بعض التفاسير، وكذا التعقيدات البلاغية أو الأعراب المطولة.^{١٦٤}

وذكر الشيخ وليد بن أحمد الحسين أبرز الملامح لمنهج الشيخ العلمي، فقال: (رابعاً): الشمولية في عرض المسائل وبسطها والتعليق عليها، فعندما يتعرض لكلمة أو جملة في كتب الفقه أو التوحيد أو التفسير أو غيرها يحاول أن يشبعها إيضاحاً من جميع الجوانب لغويًا وأصوليًا وفقهياً وغير ذلك مما يحتاجه ذلك النص من الإيضاح، وأذكر أنه عندما أراد أن يعلق على استغرقت درسين كاملين، كل درس خمساً وأربعين دقيقة، وكان ذلك في المسجد الحرام في درس الصباح في رمضان، وأوسع الحديث في لبسمة نحوياً ولغويًا وعقدياً مما

^{١٦٣} إحسان العتيبي، وقفات في حياة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله، ... ١٠٧.

^{١٦٤} إحسان العتيبي، وقفات في حياة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله، ... ١٢٨.

تضمنته من أسماء الله وصفاته. وفقهياً من حيث التسمية على الذبيحة أو عند الأكل أو غير ذلك مما ورد فيه حكم التسمية، وأيضاً إيضاحها من جانب التفسير، وهل هي آية في مطلع كل سورة، إلى غير ذلك من الأحكام والفوائد المتعلقة بهذه البسمة.

ولذا فإن المتتبع لدرس الشيخ يجد أن الشيخ يستغرق وقتاً طويلاً في إنهاء شرحه وتعليقه على الكتب التي يقوم بتدريسها، فربما يستغرق في تفسيره لجزء واحد من القرآن قريباً من السنتين، وقد حصل كثيراً أنه استغرق درسين أو ثلاثة في شرح حديث يتكون من ثلاثة أسطر أو سطرين، ومثلها في تفسير آية أو آيتين أو شرح بيت أو بيتين أو ثلاثة من النظم في درسين أو ثلاثة كل ذلك بسبب شموليته وتوسعه في الشرح.^{١٦٥}

د. بعض الأمثلة على تفسير جزء

سورة الفاتحة سميت بذلك؛ لأنه افتتح بها القرآن الكريم؛ وقد قيل: إنها أول سورة نزلت كاملة. هذه السورة قال العلماء: إنها تشتمل على مجمل معاني القرآن في التوحيد، والأحكام، والجزاء، وطرق بني آدم، وغير ذلك؛ ولذلك سميت "أم القرآن"، والمرجع للشيء يسمى "أمًّا". وهذه السورة لها مميزات تتميز بها عن غيرها؛ منها أنها ركن في الصلوات التي هي أفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين: فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب؛ ومنها أنها رقية: إذا قرىء بها على المريض شُفي بإذن الله؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال للذي قرأ على اللديغ، فبرىء: "وما يدريك أنها رقية".

^{١٦٥} إحسان العتيبي، وقفات في حياة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله، ... ١٢٨-١٢٩.

وقد ابتدع بعض الناس اليوم في هذه السورة بدعة، فصاروا يختمون بها الدعاء، ويتدثون بها الخطب ويقرؤونها عند بعض المناسبات، وهذا غلط: تجده مثلاً إذا دعا، ثم دعا قال لمن حوله: "الفاتحة": يعني اقرؤوا الفاتحة؛ وبعض الناس يبتدئ بها في خطبه، أو في أحواله. وهذا أيضاً غلط؛ لأن العبادات مبناه على التوقيف، والاتباع.

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) قوله تعالى: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ): الجار والمجرور متعلق بمحذوف؛ وهذا المحذوف يقدر فعلاً متأخراً مناسباً؛ فإذا قلت: "باسم الله" وأنت تريد أن تأكل؛ تقدر الفعل: "باسم الله أكل". قلنا: إنه يجب أن يكون متعلقاً بمحذوف؛ لأن الجار والمجرور معمولان؛ ولا بد لكل معمول من عامل. وقد رناه متأخراً لفائدتين: الفائدة الأولى: التبرك بتقديم اسم الله عز وجل. والفائدة الثانية: الحصر؛ لأن تأخير العامل يفيد الحصر، كأنك تقول: لا أكل باسم أحد متبركاً به، ومستعيناً به إلا باسم الله عز وجل.

وقدرناه فعلاً؛ لأن الأصل في العمل الأفعال، وهذه يعرفها أهل النحو؛ ولهذا لا تعمل الأسماء إلا بشروط. وقد رناه مناسباً؛ لأنه أدل على المقصود؛ ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ومن كان لم يذبح فليذبح باسم الله)، أو قال صلى الله عليه وسلم: (على اسم الله). فخص الفعل. و(الله): اسم الله رب العالمين لا يسمى به غيره؛ وهو أصل الأسماء؛ ولهذا تأتي الأسماء تابعة له. و(الرحمن) أي ذو الرحمة الواسعة؛ ولهذا جاء على وزن "فَعْلان" الذي يدل على السعة.

و(الرحيم) أي الموصل للرحمة من يشاء من عباده؛ ولهذا جاءت على وزن "فَعِيل" الدال على وقوع الفعل. فهنا رحمة هي صفته. هذه دل عليها (الرحمن)، ورحمة هي فعله.

أي إيصال الرحمة إلى المرحوم . دلّ عليها (الرحيم). و(الرحمن الرحيم): اسمان من أسماء الله يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وعلى الأثر: أي الحكم الذي تقتضيه هذه الصفة. والرحمة التي أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقية دل عليها السمع، والعقل؛ أما السمع فهو ما جاء في الكتاب، والسنة من إثبات الرحمة لله . وهو كثير جداً؛ وأما العقل: فكل ما حصل من نعمة، أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله. هذا وقد أنكر قوم وصف الله تعالى بالرحمة الحقيقية، وحرفوها إلى الإنعام، أو إرادة الإنعام، زعماً منهم أن العقل يحيل وصف الله بذلك؛ قالوا: "لأن الرحمة انعطاف، ولين، وخضوع، ورقة؛ وهذا لا يليق بالله عز وجل"، والرد عليهم من وجهين:

الوجه الأول: منع أن يكون في الرحمة خضوع، وانكسار، ورقة؛ لأننا نجد من الملوك الأقوياء رحمة دون أن يكون منهم خضوع، ورقة، وانكسار. الوجه الثاني: أنه لو كان هذا من لوازم الرحمة، ومقتضياتها فإنما هي رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق سبحانه وتعالى فهي تليق بعظمته، وجلاله، وسلطانه؛ ولا تقتضي نقصاً بوجه من الوجوه.

ثم نقول: إن العقل يدل على ثبوت الرحمة الحقيقية لله عز وجل: فإن ما نشاهده في المخلوقات من الرحمة بيئتها يدل على رحمة الله عز وجل؛ ولأن الرحمة كمال؛ والله أحق بالكمال؛ ثم إن ما نشاهده من الرحمة التي يختص الله بها . كإنزال المطر، وإزالة الجذب، وما أشبه ذلك . يدل على رحمة الله. والعجب أن منكري وصف الله بالرحمة الحقيقية بحجة أن العقل لا يدل عليها، أو أنه يحيلها، قد أثبتوا لله إرادة حقيقية بحجة عقلية أخفى من الحجة العقلية على رحمة الله، حيث قالوا: إن تخصيص بعض المخلوقات بما تتميز به يدل عقلاً على

الإرادة؛ ولا شك أن هذا صحيح؛ ولكنه بالنسبة لدلالة آثار الرحمة عليها أخفى بكثير؛ لأنه لا يتفطن له إلا أهل النباهة؛ وأما آثار الرحمة فيعرفه حتى العوام: فإنك لو سألت عامياً صباح ليلة المطر: "بِمَ مطرنا؟" لقال: "بفضل الله، ورحمته".

مسألة: هل البسمة آية من الفاتحة؛ أو لا؟ في هذا خلاف بين العلماء؛ فمنهم من يقول: إنها آية من الفاتحة، ويقرأ بها جهراً في الصلاة الجهرية، ويرى أنها لا تصح إلا بقراءة البسمة؛ لأنها من الفاتحة. ومنهم من يقول: إنها ليست من الفاتحة؛ ولكنها آية مستقلة من كتاب الله، وهذا القول هو الحق؛ ودليل هذا النص، وسياق السورة.

أما النص: فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: فإذا قال: (الحمد لله رب العالمين) قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: (الرحمن الرحيم)، قال الله تعالى: أثني علي عبدي؛ فإذا قال: (مالك يوم الدين)، قال الله تعالى: مجَّدي عبدي، فإذا قال: (إياك نعبد وإياك نستعين)، قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي نصفين؛ وإذا قال: (اهدنا الصراط المستقيم) قال الله تعالى: هذا لعبدي؛ ولعبدي ما سأل"، وهذا كالنص على أن البسمة ليست من الفاتحة؛ وفي الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر، وعمر، وعثمان؛ فكانوا يستفتحون ب(الحمد لله رب العالمين) لا يذكرون (بسم الله الرحمن الرحيم) في أول قراءة، ولا في آخرها". والمراد لا يجهرون؛ والتمييز بينها وبين الفاتحة في الجهر، وعدمه يدل على أنها ليست منها.

أما من جهة السياق من حيث المعنى: فالفاتحة سبع آيات بالاتفاق؛ وإذا أردت أن توزع سبع الآيات على موضوع السورة وجدت أن نصفها هو قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين) وهي الآية التي قال الله فيها: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين"؛ لأن (الحمد لله رب العالمين): واحدة؛ (الرحمن الرحيم): الثانية؛ (مالك يوم الدين): الثالثة؛ وكلها حق لله عز وجل: (إياك نعبد وإياك نستعين): الرابعة. يعني الوسط. وهي قسمان: قسم منها حق لله؛ وقسم حق للعبد؛ (اهدنا الصراط المستقيم) للعبد؛ (صراط الذين أنعمت عليهم) للعبد؛ (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) للعبد.

فتكون ثلاث آيات لله عز وجل وهي الثلاث الأولى؛ وثلاث آيات للعبد وهي الثلاث الأخيرة؛ وواحدة بين العبد وربّه وهي الرابعة الوسطى. ثم من جهة السياق من حيث اللفظ فإذا قلنا: إن البسملة آية من الفاتحة لزم أن تكون الآية السابعة طويلة على قدر آيتين؛ ومن المعلوم أن تقارب الآيات في الطول والقصر هو الأصل. فالصواب الذي لا شك فيه أن البسملة ليست من الفاتحة كما أن البسملة ليست من بقية السور.^{١٦٦} كان الشيخ رحمه الله يولي عناية واضحة بالنواحي اللغوية، فيبرز معنى الآية من خلال وقفات إعرابية، أو صرفية، أو بلاغية

^{١٦٦} محمد صالح العثيمين، تفسير جزء عم، ... ١١-١٦.